الأندلس في المغرب

عيسى الناعوري

في عام ١٩٦٧ ، وفي مؤتمر الدراسات الاسبانية / الاسلامية في قرطبة ، التقيتُ بالاستاذ المؤرخ والاديب المغربي عبد الله كَنّون ، وكان بيننا حديث على الاندلس ، وعلى روائع الفنون المعمارية والزخرفية فيه . وكنت اظن ان هذه الفنون قد جمدت على ما خَلّفه عرب الاندلس في اسبانيا . غير ان الاستاذ كنّون اكّد لي ان هذه الفنون لم تَجمُد ، بل هي تعيش الآن وتتطوّر في المغرب بازهى واحدث مما هي في الاندلس . ودهشتُ لذلك ، وحَسِبتُ انه من قبيل المفاخرة الوطنية .

ثم اتيح لي ان ازور المغرب عام ١٩٧٤ بحثًا عن اثر الفنون الاندلسية هناك : من طراز معماري ، ومن زخرفة ونقش ، ومن غناء وموسيقى ورقص . وقد قضيتُ في تلك الزيارة واحدًا وعشرين يوما ، وتجوَّلتُ في المدن الرئيسية : من طنجة غربًا ، الى وَجْدة شرقًا ، والى مراكش جنوبًا ، وبينهما زرتُ كذلك الرباط ، ومكناس ، وفاس ، وتطوان . وفي كل مدينة قضيتُ يومين او اكثر ، ازور القصور ، والمساجد ، والزوايا ، والمقابر ، والمدارس القديمة ، والاسوار والقصبات . وذهلتُ فعلا وانا اعيش جوَّ الاندلس من جديد ، ولكنْ بشكل احدث واكثر تطوّرًا واشدّ روعة .

كنت قبل زيارة المغرب أحسَبُ ان فنون الزخرفة الاندلسيّة قد دخلت الى الاندلس من المغرب ، مع الفتح الاسلامي الذي دخل من المغرب ، ولكنني تَيقّنتُ بعد زيارة المغرب من ان هذه الفنون المدهشة انما دخلت الى الاندلس مع الأمويين ، الذين حملوها معهم من دمشق ، بعد ان كانت دمشق قد اخذتها عن القاشاني الفارسي ، وعن

البيزنطيين ، وطبعتها بطابَـعٍ دمشقيّ خاص . ثـم تطوَّرَتْ في إسبانيا مع الأيام ، ولـم تدخل الى المغرب الا في عهـد المرابطين ، في القرن الحادي عشر الميـلادي ، الخامس الهجري ، بعـد ان ضَمَّ يوسف بـن تاشفين الاندلس الـى المغرب ، فاصبح البَلَدانِ بلـدًا واحدًا . وبذلك احتضن المغربُ الفنـونَ الاندلسيَّة منذ ذلك الحـين . وحين خرج العرب من الاندلس في القـرن الخامس عشر الميلادي هاربين الى بُلدانِ المغرب ، حملوا معهم فنونهـم ، وظلّوا يمارسونها هناك . ومـذ ذاك راحت تتطوَّر مـع الزمن الى يومنا هـذا .

والواقع أن الذي يريـد دراسة الفنون الاندلسيـة كلها ، ومنها الغناء ، والرقص ، والموسيقى ، لا بُـدَّ له من زيارة المغـرب ، والتجوّل في مختلف مُدنـه ؛ فالاندلس تعيش هنـاك بأجمل ما في فنونهـا الرفيعـة الخالـدة .

وفي مـا يلي أُدوِّن ما شاهدتُه وأُعجِبْتُ بـه في عدد من اهمّ المـدن المغربيـة، مع شيء مما لا بـدّ منه من الربط التاريخي :

— ١ —
سَبْتَـة وطَنجـة

في الزاوية الشمالية الغربية من المملكة المغربية ومن القارة الافريقية ، وعلى شاطىء البحر المحيط والبحر المتوسط معا ، تقوم مدينة طنجة ، وعلى مسافة قريبة منهما الى الشرق تقع مدينة سَبْتَة ايضا . وبين المدينتين العريقتين ينتصب شامخًا جبل موسى — نسبةً الى موسى بن نصير — ويقابله على العُدْوة الاسبانية ، شاهقًا متغطرسا ، جبل طارق . وكان هٰذان الجبلان والجبالُ العالية المتقابلة بينهما ، وَمِن حولهما ، تُدعى باسم (اعمدة هرقل) . وهي تتقابل متمرِّدَةً على جانبَي ما كان يُدعى مِن قَبْلُ (بحر الزقاق) او (بحر المجاز) ، ويُدعَى اليوم (مضيق جبل طارق) . وانما كانت تسميته بالزقاق او المجاز لضيقه ، فهو ضَيّقٌ صغير ، لا تزيد ابعدُ مسافة فيه بين العدوتين عن ثلاثة عشر كيلو مترا .

اما تسمية الجبال المتقابلة الجبّارة باسم (اعمدة هرقل) فلها اسطورة قديمة، تقول إنَّ الارض كانت مُتّصلة بين المغرب واسبانيا ، وكانت تَفصِل بين مياه الاطلنطي والمتوسّط . ثم تَزَوَّجَ هرقل ، وجاء بزوجته الى طنجة . ولئلاّ يتمكّن احدٌ من الوصول اليها وسَلْبِه اياها ، شَقَّ الارض بين القارّتين ، وانشا بينهما الزقاق المائي ، واصِلاً الماءَ بالماء ، واقام الجبال الشاهقة حارسة على طرفي الماء ؛ فدُعِيَت هذه الجبالُ الماردة بأسم (اعمدة هرقل) .

وفي طنجة مغارة هائلة على البحر تُدعى (مغارة هرقل) حَفَرَتْها امواجُ البحر القويّة التي ظلّت تضرب اطراف الجبال قرونا لا حصر لها .

ويقف المرء على شاطىء طنجة وسبتة ، فيرى البواخر والقوارب تَمخَر البحر غاديةً رائحة بين هاتين المدينتين ومُدُن (قادس ، وطريف ، والجزيرة الخضراء ، وجبل طارق ، ومالقة) على العُدْوة الاسبانية . وحين يقف على سفح جبل موسى ، بين سبتة وطنجة ، وينظر الى

الشمال عبر بحـــر الزقاق ، يُروعُه شموخُ صخرة جبـــل طارق ، كأنما أنشقَّ عنها البحـــر ، فتمرَّدت شامخةً فـــوق تيجانِ الغيوم المتصاعدة مـــن البحـــر .

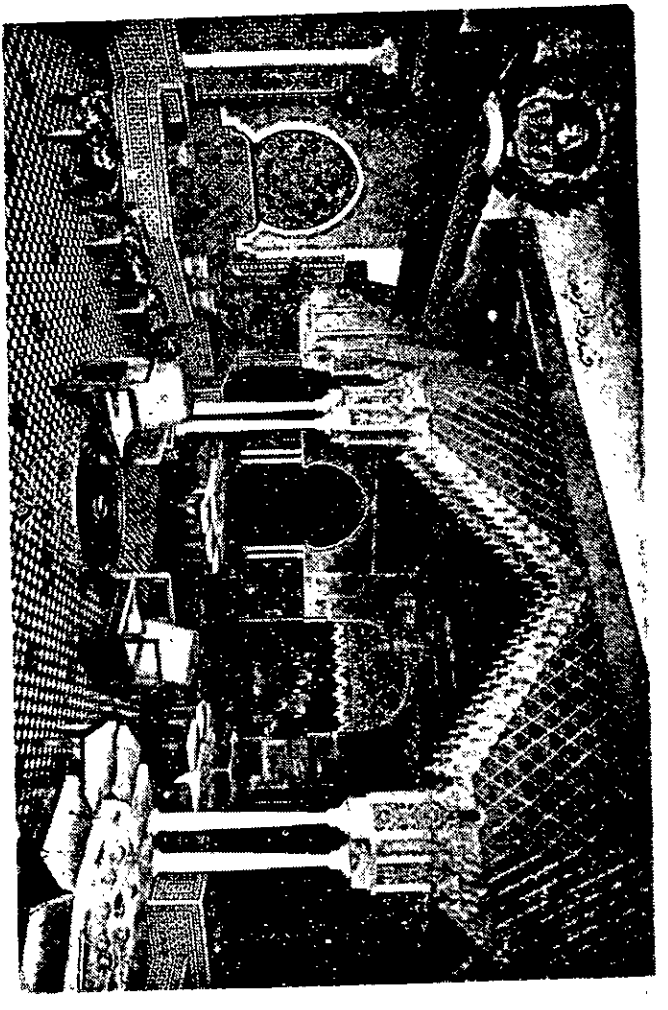

داخل فندق الريف في طنجة

من هذه البقعـــة انطلقت جيوش الفتح العربـــي الاسلامي لفتح بـــلاد اسبانيا ، مبتدئةً عـــام ٩١ هـ. ، ٧٠٩ م. وكانت هذه البقعة قبـــل الفتح الاســـلامي للمغرب وخلال مُـــدَّةٍ من بدايته ، ذاتُ صلة متينة باسبانيا ؛ فقد كانـــت سبتة في عهد عقبة بـــن نافع ، ثم موسى بـــن

نصير من بعده ، في أيدي الاسبان ، وكان يحكمها يوليان ، الذي تعاون مع العرب على غزو اسبانيا لانقاذها من حكم عَدُوّه لذريق ، ومهّدَ لهم السبيل لفتحها ؛ وسبتةُ اليوم يحكمها الاسبان ، وكانوا الى عام ١٩٥٦ يحكمون الشمال المغربيّ كلّه ، وجزءًا من الشاطىء الغربي ، في حين كان الفرنسيون يحكمون بقيّة المغرب .

وظلّت سبتة وطنجة مَعْبَرًا طبيعيًّا بين المغرب والاندلس ، مثلما هما اليوم المَعْبَرُ بين البلدين : منهما عَبَرت سرايا طريف بن مالك ، للاستكشاف أولا ، عام ٩١ هـ. وعادت بالغنائم الوفيرة ، وببشائر سهولة الفتح . ثم عَبَرت بعدها جيوش طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ. وتوغّلت في الجنوب الاسباني والغرب ؛ ثم تلتها جيوش موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ. لاستكمال فتح اسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا .

ومن هذه البقعة ايضا كان الأمويّون يدخلون احيانا من الاندلس الى المغرب ، لمنع المغاربة من التدخّل في شؤون الأندلس . ثُمّ من هذه البقعة عينها دخَلَتْ فيما بعد جيوش المرابطين ، بقيادة يوسف بن تاشفين ، مَرّتين : مرةً لانقاذ إمارات الطوائف من غارات الجيوش الاسبانية ، والمرّةُ الثانية لاحتلال الاندلس برمّتها وضَمّها الى المغرب . ومن هناك عادت الصلة التامّةُ بين المغرب والأندلس ، واصبحت هذه جُزءًا من المغرب ، ودخَلَت فنونَ الاندلس الى المغرب ، واتّصلَت الحضارة بين البلدين فصارت واحدة . واستفاد المغرب من ذلك فائدة عظيمة ، فقد كانت الأندلس متقدّمةً عليه من حيث العلم والثقافة ، وكان هو متقدّمًا عليها في القوة والسلاح ، « فكان هو يبذل للأندلس حمايته — كما يقول الاستاذ عبد الله كنّون في الجزء الاول من كتابه (النبوغ المغربي) — والاندلس تبذل له ثقافتها ومعارفها » (١) . وحين استولى يوسف بن تاشفين على الاندلس ، حمل ملكُ إشبيلية ، المعتمدُ بن عبّاد ، أسيرا مكبّلاً بالقيود الى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثم الى أغمات — في الجنوب المغربي ، قرب مراكش — حيث مات سجينا ذليلا .

---

(١) النبوغ المغربي ، لعبد الله كنون ، ص ٧١ ، الجزء الاول — الطبعة الثانية .

لقد تأثرت طنجة ، مثلما تأثر المغرب كلّه ، بحضارة الاندلس ، وظلّ هذا الاثر الى يومنا هذا بارزا في العناية البالغة بالهندسة المعمارية ، والزخارف والنقوش الاندلسية ، والمُقَرْبَصات الرائعة البارزة في الجبص وفي الخشب ــ والمقربصات تعني (النقوش المجسّمة النافرة) وهي ماخوذة من الكلمة اللاتينية (CORPUS) التي تَعني (الجسم) ؛ ويُخطىءُ من يدعوها (المقرنسات) أو (المقرنصات) ، فهي كلّها مُجسّمات نافرة .

وتعتمد الزخارف الاندلسية على قطع الزِّلّيج الخزفية الصغيرة ، ذات الالوان الجميلة الزاهية ، ولا سيما اللون الازرق واللون الاخضر ، وذات الاشكال البارعة الصناعة ، كأوراق الشجر حينًا ، او باشكال مربَّعةٍ او مثلّثةٍ احيانا اخرى . وهي تُلْصَق إلصاقًا على الجدران ، وتُصْنَع منها صُوَرٌ واشكالٌ فنّية غاية في الجمال والرهافة والدقّة . وقد تُغطّى بها الجدران بأكملها ، أو قد يُغطّى جزءٌ من الجدران الى عُلُوٍّ معين .

وحين تَجتمع هذه الزخارف الخزفيّة الى المُقَرْبَصات البارزة في السقوف الجبصيّة ، أو في الخشب ، ورفوف الابواب الدقيقة الصناعة ، تبدو فِتنةً للنظر وبَهجةً للقلب .

هذا الطراز من الزخارف الزِّلّيجية والمقربصات الجميلة ما يزال الاسبانُ الى اليوم يحافظون عليه في متاحفهم ، وقصورهم ، وبيوتهم ؛ غير ان الحفاظ عليه في المغرب اشدُّ واعظم ، واكثرُ اتّساعا : فقصورُ المغرب كلُّها ، ومَساجِدُه ، وفنادقه ، والكثيرُ من بيوته ، هي قطع روائع من الفنّ الاندلسي الساحر .

في طنجة ذهبتُ لزيارة الصديق عبد الله كنّون في منزله في القصبة ــ وهي مدينة طنجة التاريخية القديمة ــ فراعني ما شاهدتُ في المنزل من جمال النقوش والزخارف الأندلسية : من مدخل الدار ، الى بَهْوها السفلي ، الى السُّلّم الصاعدة الى الطابق الثاني ، الى ما رأيته من غرف المنزل ، وطراز اثاثها . كلُّ شيء فيه اندلسي ،

حتى طراز الفـــراش ، والستائر ، والمقاعـــد الممدودة على الارض ، او المرتفعة علـــى مساطب مفروشـــة .

ومثل منزل عبد اللـــه كنّون ، بل اكثر زخرفة ، كـــان كذلك الفندق المعروف باســـم (فندق الريف) ، ففي قاعاته آيـــاتٌ باهراتٌ من هذه النقوش والزخـــارف الاندلسية .

وتنتقل من هنـــاك لتتجوَّلَ في (القصبة) المطلّـــةِ على البحر ، والمحاطةِ بالاســـوار العالية ، فتتخيَّلُ انك في احـــدى قصبات الاندلس ؛ والقصبةُ كانت من قبلُ مَقـــرَّ الحاكم ، وفيها دوائر الدولـــة ، وثكنات الجيش . وفي طنجة مـــا تزال القصبة يبدو عليها القـــدم ، في البيوت ، والشوارع ، الا مـــن بعض الأبنية الحديثة التي تكـــاد لا تبدو فيها . واسوارُها شبيهة بأســـوارٍ كثيرة ما تزالُ قائمة في العديد من المـــدن الاندلسية . الطراز واحـــد ، والنتوآت المدبَّبَة في اعلـــى الاسوار والأبراج واحدة . ولا عجب فـــي ذلك ، فقد تعاقب على حُكْـــم الاندلس من المغاربة ــ من القـــرن الحادي عشر الميلادي الـــى اواخر القرن الخامس عشر ــ المرابطون ، والموحِّدون ، والمَرينيّون ، الذيـــن في اواخر عهدهم خرج العرب نهائيـًا من الاندلس . وكلُّ هؤلاء تركوا آثـــارا متشابهة في الأندلس والمغـــرب معًا ، وكلُّهم شيَّدوا القلاع والحصـــون والقصبات والقصور ، وبنـــوا المساجد والاسوار ، واسّســـوا المدارس في عُدْوَتَي بحـــر الزقاق . وكثيرٌ من هذه الآثار مـــا يزال قائما الى اليوم علـــى الأرض المغربيّـــة والأرض الاسبانيّـــة .

واما الغناء الاندلســـي والموسيقى فما يزالان يعيشـــان كذلك في طنجة ، وفي المغرب برمّتـــه.والمغاربة يدعونه باسمـــه الحقيقي : (الغناء الاندلسي ، في حـــين يدعوه التونسيون والليبيون باســـم آخر ، هو (المـــالوف) . والمغاربة يقيمون حفلات الغنـــاء الأندلسي باستمرار في كلّ مكان من الارض المغربيـــة ، باعتباره فنًّـــا لهم فيه حِصَّة ، ولهم في بقائه نصيب ؛ فهـــو لذلك بعضٌ من التراث الشعبي المغربـــي .

- ٢ -

الربـــاط

من طنجة ننحدر ــ مع الخريطـة الجغرافية ، لا مـع التاريخ ــ جنوبا ، لنصل الى مدينة الربـاط ، عاصمة المملكة المغربيـة اليوم ، وجارة مدينة (سـلا) على شاطىء الاطلنطي ، لا يفصـل بينهما غير نهر

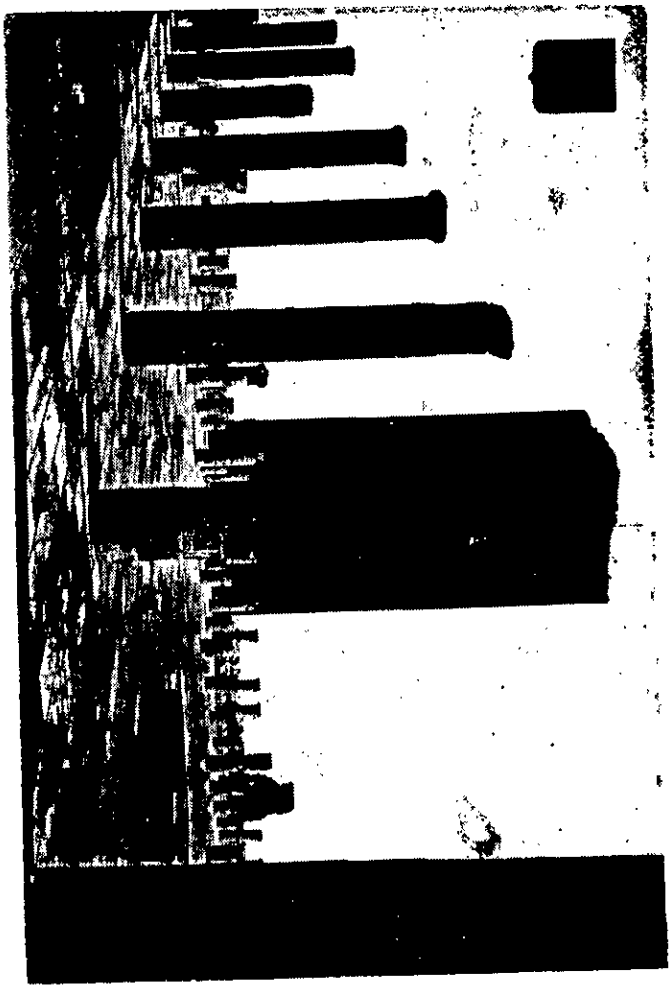

مئذنة حسان في الرباط

ضحل الميـاه ، قليل العرض ، هو نهـر (بورقراق) . وفي (سلا) تُوفّيَ الملك عبـد المؤمن ، اول ملوك الموحّديـن .

وقبل ان ابـدا الحديث على الرباط ، أرى ان اذكـر أن جارتها (سـلا) مدينةٌ اندلسية،بمعنى انَّ سُكّانهـا من اصل اندلسي ، نزحوا من الاندلس فعمروها ، واقامـوا يمارسون فيها اساليب حياتهـم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وصناعاتهـم الاندلسية ، مثلما فعـل إخوانٌ لهم خرجوا من الاندلس ، وانشـاوا مدينة تطوان ، وبعض المـدن المغربية الاخرى ؛ وكانت سـلا من قبل مدينة رومانية عريقة . فهي من المـدن المغربيـة القديمـة .

ولكنّني لـن اقفَ طويلا عند مدينة سـلا ، وقد زُرْتها وتجوَّلْتُ فيها ، فلم اجـد فيها من مظاهر الفنـون الأُندلسية الا القليل الذي لا يستحقّ الوقوف عنده،بالنسبة الى ما شاهَدْتُه في المـدن الاخرى الكبيرة.

واما مدينة الرباط ، او « رباط الفتح » ، كما كـان اسمها ، فتزخر بالكثير جـدًّا من مظاهر الفنون الأندلسية بشكـل يسترعي النظـر ، ويستوقف الزائـر للتأمل والاعجاب .

هذه المدينة بناهـا سلطان الموحّدين الأشهـر يعقوب المنصور ، سنة ١١٩٨ م. ٥٩٣ هـ. وانشأ فيها مسجد حَسَّان وصومَعَته ـ مئذنته ـ اخت مئذنة (الكُتَبِيَّة) فـي مراكش ، ومئذنةِ (الخيرالـدا) في اشبيلية ، بالاندلس ، وكلُّها مـن اعماله الخالدة . واما مسجد حسّان فقد دَرَس ، ولم يبق منه اليـوم غير انصافِ اعمدةٍ مزروعة فـي الارض ، يقوم بينها جزءٌ من المئذنـة يَستدعي الاشفاق حين يتذكّرُ المـرءُ ان شقيقتَيها في مراكش واشبيلية لا تـزالان قائمتين تتحدّيان الزمان . ويُقـال ان المئذنة لم تكمل ، مثلمـا كملت شقيقتاهـا .

وفي الطرف الغربي مـن المدينة تقوم (قصبـة الاوداية) ؛ وهي اختٌ لقصبات عديدة مثلها في الطراز ، باقيـةٍ الى اليوم في الأندلس ، تشابهها في البنـاء الداخلي ، وفي الأسوار ، وفي كـلّ شيء . وكان قد انشاها ملك الموحّديـن الأوّل عبد المؤمن بـن علي سنة ١١٥٠ م. وهي اصل مدينـة الرباط .

وفي جهة اخرى من المدينة تقوم بقايا مدينةٍ رومانية تُدعى (شيلا) ، وقد اتّخذها ملوك المَرينيّين مَقبرةً لهم ، واحاطوها باسوار عالية ، واقاموا فيها مسجدا ومئذنة . وكلّها ما تزال قائمة هناك الى اليوم .

ولم تصبح الرباط عاصمة للمغرب الاّ في عهد الاسرة العَلَويّة التي تحكم المغرب منذ زمن مولاي رشيد ، في القرن السابع عشر الميلادي ـ وكانت في اول عهدهم مَقرًّا مؤقتا لملوكهم ، ثم تحوّلت الى عاصمة رسمية لهم في زمن الملك يوسف ، والد الملك محمد الخامس ، وَجَدِّ الملك الحسن الثاني . وكانت عاصمتُهم من قَبلُ هي مدينة فاس ، او مدينة مراكش . وقبل ذلك كانت مدنٌ اخرى عواصم للمغرب ، فالعاصمة هي (وليلي) مَرّة ، وحينًا مراكش ، وحينًا آخر مكناس ، او فاس . واحيانا كانت المدينةُ الواحدة تتحوّل مِرارًا الى عاصمة ، مثل مدينة فاس ، ومدينة مراكش .

ولقد تَقَلَّبَتْ على المغرب كلِّه حكوماتٌ متعددة : من عهد إدريس الأول ، حفيد الرسول ، الذي لجأ الى المغرب في القرن الثامن للميلادي ، هربًا من بطش هٰرون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي ، وأَسَّسَ هناك الدولة الادريسيّة ، اول مملكة مغربية اسلامية ، وقد استمر حكمها نحو قرنين من الزمن . ثم قامت الدولة الفاطمية ، فدولة المرابطين ، فالموحدين ، فالمَرينيين ، فالوَطّاسيين ، فالسعديين ، واخيرا الدولة العلوية الحاكمة الى اليوم . وعَرَفَ المغربُ الحكم الاجنبي فترة من تاريخه الحديث ، وكان حُكمًا استعماريًّا مزدوجا : فهو اسبانيّ في الشمال والغرب ، وفرنسيّ في الوسط كلّه ، الى ان جلا الاستعمار المزدوج في عهد الملك محمد الخامس ، ثم في عهد ابنه الحسن الثاني ، ملك المغرب اليوم . ولم يبقَ من المغرب في أيدي الاسبان غير مدينتي سبتة ومليليا ، في الشمال المغربي ، على ساحل البحر المتوسط ، وذلك بعد ان خرج الاسبان اخيرا من الصحراء المغربية ، على الساحل الجنوبي الغربي .

وكان المرابطون ، ومن بَعْدهم الموحّدون ، ثم المَرينيّون قد حكموا الاندلس ، وجعلوا منها جزءاً من دولة المغرب . وفي اواخر العهد المرينيّ وبداية العهد الوَطّاسي خَرَجَ العرب من الاندلس ، فكان من الطَبَعيّ جدًّا ان يلجاوا الى الشمال الافريقي ، ويُنشئوا فيه مُدنًا وقرى ، كان منها في الشمال تِلمسان وتَطوان ، وفي الوسط سلا — وتلمسان اليوم من الجزائر — .

هذا من الجانب التاريخي الذي يربط بين المغرب والأندلس ، ومن حيث الآثار العديدة الباقية اليوم في مدينة الرباط ، مِمّا له اشباهٌ كثيرة في الاندلس .

امّا الطراز الاندلسي في البناء والزخرفة ، فان في الرباط منه الكثير ممّا يُدهش النظر ويُبهج النفس . وانت حين تصل الى مئذنة حسّان ، تجد الى جانبها ، وعند طَرَف الأعمدة الباقية من جامع حسّان ، بناءً من افخم الابنية وابهاها ، هو ضريح الملك محمد الخامس ، والى جانبه مسجد محمد الخامس كذلك . والبناآن آيتان من آيات الصناعة الاندلسية الحيّة المتطورة في المغرب ؛ وأدعاهما الى الدهشة والانبهار بجمال صناعته الاندلسية هو الضريح ذو الطابقين ، بِقُبّته العالية المذهبة ، وجدرانه التي تَفَنَّنَ فيها الصُنّاع حتى لم يَبْقَ بعد فَنِّهم فنٌّ في زخارف الزِلّيج والمقربصات الرائعة . وانت تقف تحت قُبّته ، وتحتار في تلك الصناعة العجيبة التي لم تُعْرِف عصورُ الاندلس لها مثيلا ، حتى في قصر الحمراء ، وقصر جَنّة العريف ، وجامع قُرطبة ، وقصر اشبيلية — وكلُّها من عجائب الدنيا في جمال الصناعة الزخرفية والهندسية الاندلسية — .

والجديد في ضريح محمد الخامس هو إدخال الذهب في الطراز الاندلسي باشكال لم تعرفها زخارف الاندلس من قبل ، وبكثرة تَخْلب النظر ؛ وكذلك التَفَنُّن في الأشكال الزخرفية الأخرى غير المألوفة كذلك . وتُحِسُّ وانت في داخل الضريح ، ثُمَّ في المسجد مِن بَعده ، بانك تودُّ لو تُطيل البقاء ، مستمتعًا بروعة الصناعة وجمال الفن .

وتستعيد في خيالك كـلَّ قصور الاندلس ومساجدهـا ومآذنها ، فتحسُّ بعظمة الأندلسيين الذيـن خَلَقوا هذه الفنون المدهشة : من دِقَّـة القِطَع الزلّيجية الصغيرة ، ورهافـة الفن في ترصيعها ، وجمـال النقوش المصنوعة منها ، ومن رهافـة المقربصات الجبصية والخشبيـة التي خَلَقَتْها عبقريّةُ الفنـان الأندلسي . ثم يأخذك العجب مـن بقاء هذه الصناعة العجيبة مزدهـرة ، ومن تَطَوُّرها وتحديثها في مـدن المغرب كلّها الى اليـوم ، وحفاظ المغرب على ان تظـلَّ الاندلسُ حَيَّةً فيه ، لا يمحو جمالهـا الزمان ، بهندستها المعماريـة ، وزخارفها ونقوشها ومقربصاتها ، وكذلـك بموسيقاها ، وغنائها ورقصهـا .

وتَخْرُج من الضريح والجامـع لتتجوَّل في أنحاء مدينة الربـاط ، فتدهشك القصور الملكيـة ، بزلّيجها الأخضر الجميل فـي السطوح ، وفي الجدران الخارجية ، وفـي ظِلَلِ الحدائق الفسيحة : قصر المَشْـوَر ، وقصر السلام ، والقصر القديـم الذي بناه محمد بن عبد اللـه العلوي . وهذه القصور الملكيّة تُحَـفٌ روائع من الصناعة الأندلسية الطـراز ، تَفَنَّنَ فيها الصُنَّـاع المغاربةُ فأبدعوا غايـة الابداع .

ثـمَّ تمضي الى جامع السُنَّة ، وجامـع مولاي يوسف ، وهمـا متقاربان في المكـان ، فتقف متأمِّلاً جمال الزلّيج الاخضر الـذي يُغطّي سطوحهما . وتمضي الـى الداخل ، فتُدهِشُك البساطـة الأنيقة في رهافة الصناعـة الاندلسية ــ وللبساطة جمالُها ايضـا متى كانت من صُنع يَـدٍ فنّانةٍ بارعة ــ .

ولا يقتصر الطـراز الأندلسي على الجوامع والقصور ، بـل تَجِدُه كذلك في بعض الفنـادق ، وأَخُصُّ بالذكر (فندق حسّـان) ، في وسط المدينة ؛ وهو تحفة فنيـة رائعة من الداخل ، بجمـال الصناعة الزخرفية الاندلسية ، التـي تستريح اليها النفس ، ويستريح النظـر .

- ٣ -

مـــراكش

ونمضي مع خريطة المغـــرب انحدارا الى الجنوب ، حتـــى نصل الى مراكش ، مدينـــة النخيل ، او المدينة الحمراء ، كمـــا تُدْعَى أحيانا .

مئذنـــة الكُتبيّة فـــي مراكش

وهي تُدعَى كذلك لانَّ لـــون بيوتها الخارجي أحمر ، بعكس مـــدن المغرب الأُخرى وقراه ، وكلُّهـــا تقريبًا مطليَّةٌ من الخـــارج باللون الابيض ـــ

ومثلُها كذلك الجزائر وتونس وليبيا ـ وتكثُر في المدينة ومن حولها اشجارُ النخيل الجميلة . وبيوتُها صغيرة وقليلة الطوابق .

هذه المدينة بناها أميرُ المرابطين يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ. ١٠٦٢ م. واتّخذها عاصمةً لدولته بَدلاً من العاصمة فاس . ومِنْ بَعْدُ ظلّت مراكش عاصمةً للموحّدين ، ثم كانت عاصمةً كذلك للسعديين في القرن السادس عشر للميلاد ، العاشر للهجرة . واتّخذها ملوك العلويين الأولون كذلك عاصمةً لهم ، الى ان انتقلت العاصمة الى الرباط في عهد مولاي يوسف ، والد محمد الخامس ، وجَدّ الحسن الثاني . وقد تَرَكَتْ كلُّ واحدة من هذه الدول المغربية آثارا من آثارها في هذه المدينة العريقة .

وجدير بالذكر انَّ معظم أعلام الفلسفة والطبّ من الاندلسيين ، من عهد المرابطين الى اواخر عهد المرينيين خاصة ، قد انتقلوا من الاندلس ليقيموا في مراكش او فاس ، في رعاية ملوك هذه الدول الثلاث وامرائها . وفي ذلك يقول عبد الله كنّون في كتابه (النبوغ المغربي) : « فابو بكر بن باجة ، المعروف بابن الصايغ ، والفيلسوف والطبيب والموسيقي ، هو ممن اظلّتهم دولةُ المرابطين ، وخَدَمَ رجالها بعلمه وفنه ؛ وابو الوليد ابن رشد ، وابو بكر ابن طُفَيل ، وابناء زهر ، هُم ممَّن نبغوا في اعقاب عصر المرابطين ، وانتشرت معارفهم في العصر الموحّدي الذي يليه . واعلامُ الفقه والتصوف ، مثل ابن رشد الكبير ، وابي بكر ابن العربي ، وابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، هم من رجال عصر المرابطين او عصر الموحّدين » (١) .

وفي مراكش ضريح بسيط متواضع ليوسف بن تاشفين ، على مقربة من جامع الكتبية ، أُقيمَ في عهد الملك محمد الخامس فقط ، في حين يقوم ضريح خصمه واسيره الشاعر الاشبيلي المعتمد بن عبّاد غيرَ بعيد عنه ، في أغمات ، في فخامةٍ لا يعرفها ضريح ابن تاشفين .

---

(١) النبوغ المغربي ، لعبد الله كنون ، الجزء الاول ، ص ٦٦/٦٧ .

وكانت اغمات عاصمةَ المرابطين قبل ان يبني يوسف بن تاشفين مدينة مراكش .

وجدير بنا ان نشير ههنا الى ان ابن تاشفين كان قد دخل الى الاندلس بجيوشه مَرَّتين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ؛ الأُولى لصد غارات الجيوش الاسبانية عن ممالك الاندلس ، ولا سيّما عن مملكة اشبيلية التي كان يحكمها المعتمد بن عبّاد ، والثانية بَعْدَها بقليل ، لكي يَضُمَّ الاندلس الى المغرب ، ويبسط سلطانه على العُدْوَتين . وفي هذه المرة الثانية ساقَ المعتمدَ مكبَّلاً بالقيود الى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثم الى اغمات ، حيث مات المعتمد في ذلّة الاسر ، وخَلَّف لزوجته وبناته مذلّةَ التشرّد والفاقة . ثم ماتت زوجته ودُفِنَت الى جانبه .

ويتألف مبنى ضريح ابن عبّاد من مدخل ، تقوم الى يساره غرفةٌ فيها سِجِلٌّ للزائرين . ويُفضي المدخل الى باحةٍ مكشوفة ، ثم الى غرفة فيها قبرُ ابن عبّاد وقبرُ زوجته الى جانبه . وعلى الجدار الأيمن والجدار الأيسر أبياتٌ نظمها الشاعر الوزير لسان الدين ابن الخطيب حين زار قبر المعتمد . وهذه ابيات منها :

قبرَ الغريبِ ، سَقاك الرائحُ الغادي حقّاً ظَفِرتَ باشلاءِ ابنِ عَبّادِ
كفاك ، فارْفُقْ بما استُودِعْتَ من كَرَمٍ رَوّاكَ كلُّ قَطوبِ البَرقِ رَعّادِ
ولا تَزَلْ صلواتُ اللّهِ دائمةً على دَفينِك، لا تُحصَى بتَعدادِ

وكان ابنُ الخطيب قد رثى ابن عبّاد بابياتٍ اخرى حينما وقف على قبره ، فقال :

قد زرتُ قبرَك عن طوعٍ بأغماتٍ رأيتُ ذلك من اولى المهمّاتِ
لِمْ لا ازورُك يا أنْدَى الملوكِ يدًا ويا سِراجَ الليالي المدلَهِمّاتِ؟
وانتَ مَن لو تَخَطّى الدهرُ مَصْرَعَهُ الى زماني،لجادتْ فيه ابياتي

لكأنما شاءت الأقدارُ ان تُقارِبَ بين ضريح السلطان الغالب ، والملك الشاعر المغلوب ، الذي كان له من دنياه السلطان والشعر

معًا ، فَخَلَـدَ بالشعر ، وظلَّ اغرودةً في فـم الزمان ، وظلَّ قبرُه مَحجَّةً للزوّار ممَّن يَعشقون الفـنّ والشعر . وبَجمْع الضريحين المتقاربـين ، اجتمعَ المغربُ والأندلسُ اجتماعا ابديـًّا ، كان الضريحان رمـزًا خالدًا لـه وعنوانـا .

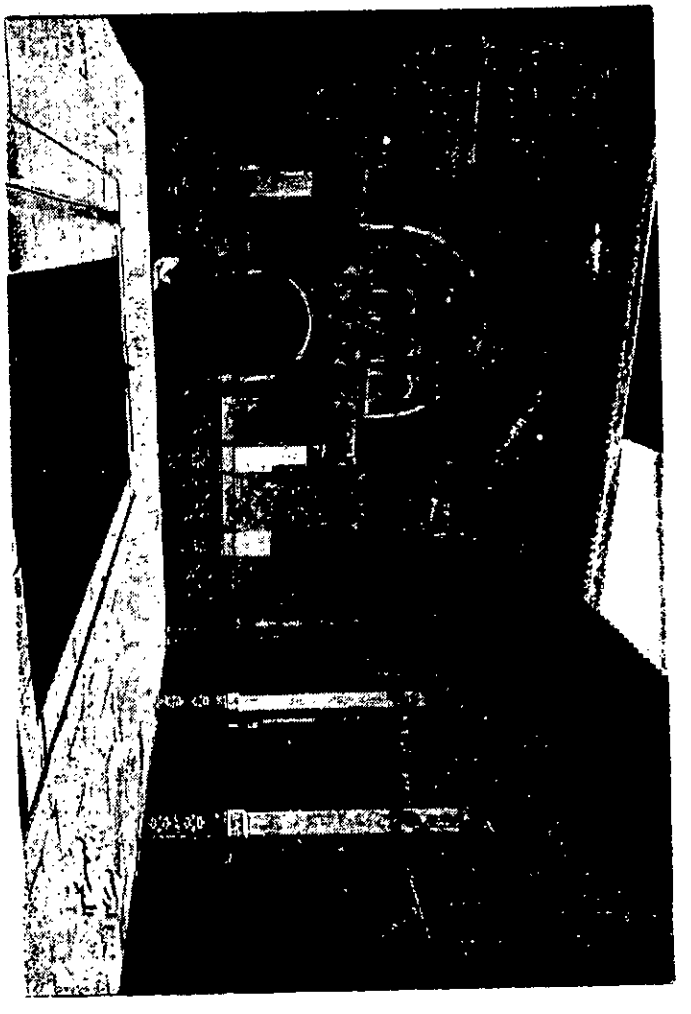

المدرسة اليوسفيـة في مراكش

والى جانب ذلـك يجتمع المغرب والاندلس في آثـار اخرى باقية في مراكش ، لَعلَّ اهمَّهـا جامعُ الكتبيّة ومئذنتُه ــ او صَومعته ــ اخـت مئذنة اشبيلية الشهيرة باسـم (الخيرالدا) ، ومئذنة حسّـان في الرباط .

يمتاز مئذنة الكتبية ومئذنتا الخيرالدا وحسّان ، بأنَّ السعود اليها ليس على سلالم ، بل في طريق عريضة مُتلَوّية ، تنتهي كلُّ دَورة منها بشُرفات من جميع الجوانب ، تُطلُّ على المدينة ؛ حتى اذا بلغ الصاعدُ أعلى المئذنة ، واطلَّ من شرفاتها ، انبسطت تحتَ عينيه المدينةُ كلُّها كما تنبسط راحة اليد . ويُقال إن المنصورَ قد أراد من بنائها بهذا الشكل أن يكون في وُسعه الصعودُ الى أعلى المئذنة على صَهوة جواده . هذه المِيزَةُ هي اهمُّ ما يجمع بين المآذن الثلاث . واما احجامها فمختلفات : فالخيرالدا يبلغ عُلوُّها اكثرَ من خمسة وسبعين مترا ، وعلوُّ الكتبية اثنان وستّون مترا ، ولا أدري كم كان ارتفاع مئذنة حسان ، في الرباط ، فهي الآن بَقيَّةُ مئذنة فقط ؛ أما من حيث الشكل الخارجيّ فان الخيرالدا ، في اشبيلية ، تُحفَةٌ رائعة من آيات الفنّ المعماري ، لا تضاهيها في ذلك مئذنة الكتبية . وقد اقيمت هذه المآذن الثلاث في القرن الثاني عشر الميلادي ، السادس الهجري .

وليس في وسعي ان أُطيلَ الحديث على سائر الآثار المراكشية ، فهي كثيرة جدًّا ، وكلُّها جدير بوقفات طوال مُشبِعات . غير انني اكتفي بذكرها فقط ، ومنها : مقابرُ السعديّين ، وفي وسطها قبرُ احمد المنصور الذهبي ، اعظم ملوك السعديين وابعدُهم شهرة ، وهي من القرن السادس عشر ، وفيها الكثير من اثر الصناعة الاندلسية . وهناك قصر (دار الهناء) وحدائقُ الأُوكدال الفسيحة الواسعة الارجاء ، وقد انشاها الملك محمد بن عبد الله العَلَويّ . وفي هذه الحدائق غابات من شجر الزيتون ، وبِرْكتان كبيرتان هائلتا الاتساع ، في وسط إحداهما مكانٌ لجلوس جوقةٍ موسيقية وغنائية ؛ فهي بذلك شبيهة ببِرْكة القيروان في تونس . وهنالك ايضا قصرُ البديع ، الذي بناه احمد المنصور الذهبي ، من ملوك السعديين ، في القرن السادس عشر .

واما اقدمُ اثر مغربي يبدو فيه الطابع الاندلسي ، في المغرب كلّه ، فهو المدرسة اليوسفيّة ، في مراكش ؛ وكان قد بناها الامير عليّ بن يوسف بن تاشفين ، ودعاها باسم ابيه . وكل ما في هذه

المدرسة اندلسيُّ الطراز ، سواءً في هندسة البنـاء ، ام في المُقَرْنَصات الخشبيّة السوداء ؛ وهـذه اوَّلُ مدرسة اندلسية الطـراز شاهدتُها في حياتي ، ولم أرَ من قبـلُ مثلها في الاندلس . امـا المغرب فتكثر فيه

مقبـرة السعديين فـي مراكش

هذه المدارس ، وكثير منها مما انشاه الملك ابو عنان المَرينـي ، وتُدعَى مدارسه كلها باسمـه : (المدرسة البوعنانيّة) . وقـد شاهدتُ من المدارس البوعنانية ثلاثـا : في سلا ، وفاس ، ومكناس ؛ وهـي وسواها من المدارس القديمـة متشابهةٌ في طرازها ، وغُرَفُ الطـلّاب فيها اشبه

بالرنزانات ، وكُلُّها تُطِلُّ على بهو اوسط مفتوح ، وتقوم في الطابق الثاني من المدرسة .

وأما الزخارفُ الاندلسيَّةُ المدهشة فيجدها الزائر في قصر (الجلاوي باشا)، المهجور الآن، بكلّ ما كان فيه من اثاث ورياش فاخرة ، كلُّ اقمشتها من الدِمَقْس الحُرّ . وكذلك في (قصر الباهية) ذي الحدائق الأنيقة، بطرازها الاندلسيّ الجميل المتع . في هذين القصرين يعود المرء بخياله الى الاندلس ، ويعيش في جوٍّ اندلسيّ صرف ، ولكنّه جوٌّ اندلسي حديث متجدد .

— ٤ —

مدينة فاس

يا فاسُ، يا جَنَّةَ الآمال باسمةً وجنّةَ المغرب الأقصى لِما رَحُبا

ما زال جامِعُكِ المعمور مَفخرةً للضاد ، طَوَّقَ طَوْقَ المِنَّةِ الحِقَبا

(محمد الجبوري)

وتنطلق من مراكش مصعِّدًا في الأطلس الأوسط نحو الشمال ، حتى تصلُ الى مدينتين عريقتين ، هما مكناس وفاس . ولكليهما تاريخ طويل مجيد من تاريخ المغرب السياسيّ والفكريّ ، وَصِلاتٌ متينة بالأندلس وعرب الأندلس في القديم ، وبفنون الأندلس في العصر الحاضر .

ولستُ اقف طويلا عند مدينة مكناس ، بل ، اكتفي منها بذكر القليل من آثارها الباقية ، واهمُّها : قصر اسماعيل بن علي بن الشريف ، راس الأسرة العلوية ، ومَسجِدُه الأندلسيّ الطراز ، ذو الألوان الجميلة الشبيهة بألوان قصر إشبيلية ؛ وكذلك المدرسةُ البوعنانية ؛ وهي احدى المدارس التي انشاها أبو عنان ابن أبي الحسن المَرِينيّ . ويضاف اليها قصرُ الجامعيّ ، الاندلسيُّ الجميل .

وأمّا مدينة فاس فيرجع تاريخ بنائها الى الملك ادريس الثاني ، ابن الامام ادريس الاول ؛ فهو الذي وضع حجر الاساس للمدينة في غرّة

ربيع الاول عـــام ١٩٢ هـ. ، الرابع من يناير ٨٠٨ م. ثـم نُقل اليها عاصمة ملكه من مدينـــة (وليلى) أو (فولوبوليس) التـــي كانت عاصمة ابيـــه . وسَرعان ما توافد عليه العـــرب من إفريقية (تونس) ومن الأندلس : فجاءه خمسمئة فـــارس من افريقية ، ومئـــات من الاسر

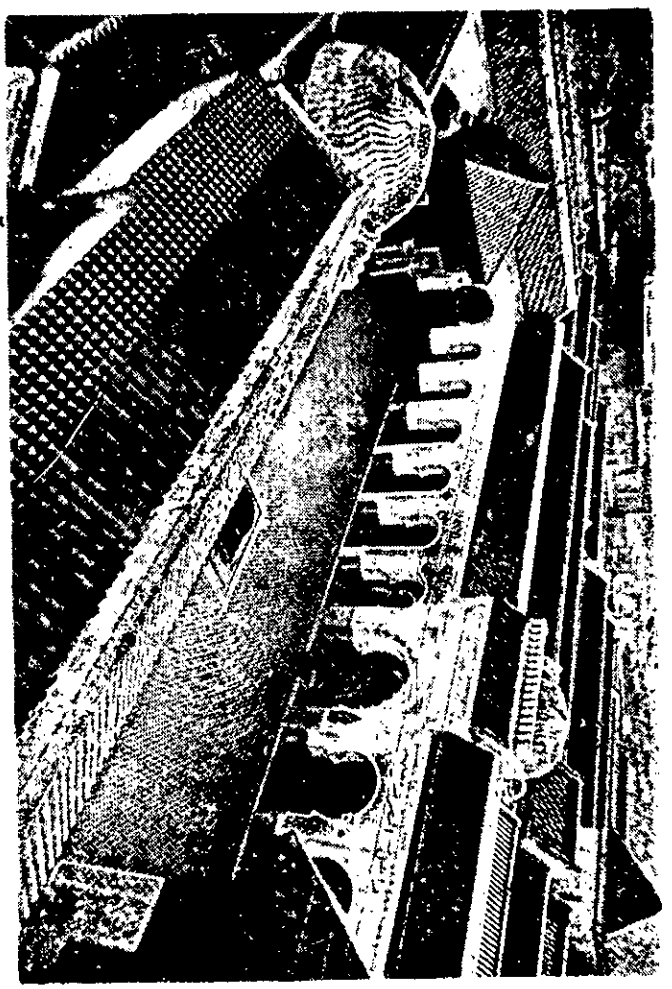

صحن جامع القرويين في فاس ويبدو سقوفه الزليجية

الأندلسية . فَجَعل المدينـــة قسمين ، دعا احدهما (عـــدوة الأندلس) ـــ وهي القسم الشرقيّ من المدينة ـــ وأنزَل فيـــه الأُسَر القادمة مـــن الأندلس ، ودعـــا القسم الثاني (عـــدوة القرويين) ـــ وهي القسم الغربيّ ـــ وقد اتّخذ منـــه الملك ادريس مَقرًّا لـــه .

وظلت فاس عاصمة الدولة الادريسية ، التي قامت في المغرب على يد الامام ادريس الاول ، بعد هربه من المشرق خوفا من بطش الرشيد به . غير انّ البطش لحق به الى المغرب ، فمات مسموما في عاصمته (وليلى) على يد الشماخ ، بتدبير من هُرون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي . ولما قامت دولة المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ، انتقلت العاصمة من فاس الى مراكش، التي بناها يوسف بن تاشفين . ولما جاء المَرينيّون في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، نَقلوا العاصمة من مراكش الى فاس من جديد ، واضافوا الى المدينة قسما دعوه (فاس الجديدة) واحاطوه بالأسوار ، كما كانت المدينة القديمة محاطة بالأسوار ايضا . وظلّت فاس عاصمةً للمغرب بعد ذلك في عهد الوَطّاسيّين ودولتهم القصيرة العمر ..

وكَثُر نزوحُ الأندلسيّين الى فاس ، وقد حَملوا معهم مظاهر حضارتهم وفنونهم ، فكان لذلك اثره الكبيرُ جدًّا في التقدُّم الفكريّ والحضاريّ الذي عرفته فاس . وَمِمَّن وَفَدوا عليها ومارسوا علومهم وفنونهم فيها : الطبيب والعالم عبد الملك بن زهر ، والفيلسوف ابن رشد ، والوزير الشاعر لسان الدين بن الخطيب ، والكاتب جُزَيّ بن عبد الله الغرناطي ، والوزير الشاعر ابن زمرك ، وغيرهم ، وكلُّهم عملوا في المغرب في عهد المرابطين او الموحِّدين او المَرينيّين . والمؤلم حقًّا انّ كلَّ واحد من هؤلاء الأعلام قد رُمِيَ بتهمة الالحاد والزندقة ، وبعضُهم مات حرقا ، او مات مسموما . ولا يزال قبر لسان الدين بن الخطيب بارزًا أثرُه خارج اسوار مدينة فاس .

وما تُذْكَر مدينة فاس الا ذُكِرَ معها جامع القرويين ، وكان دائما في المغرب صنو الأزهر في مصر ، وفيه تَخَرَّج كبارُ علماء البلاد المغربية على توالي العصور الى يومنا هذا . وقد تَحَوَّلَ اليوم الى جامعة عصرية . وهذا الجامع انشأتْه في القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، السيدةُ فاطمة أمّ البنين الفِهْريّة ، من مهاجرات القيروان .

ولم يلبث الجامع ان اصبح جامعة ، هي اقدم جامعات العالم على الاطلاق ، واصبح مصدر إشعاع فكريّ إسلامي غَمَرَ بلدانَ المغرب والأندلس ، وتوافَدَ عليه العلماءُ وطُلاّب العلم من كل صوب . وبجامع القرويين صارت فاس عاصمةَ المغرب العلميّة الى اليوم . وهو اول

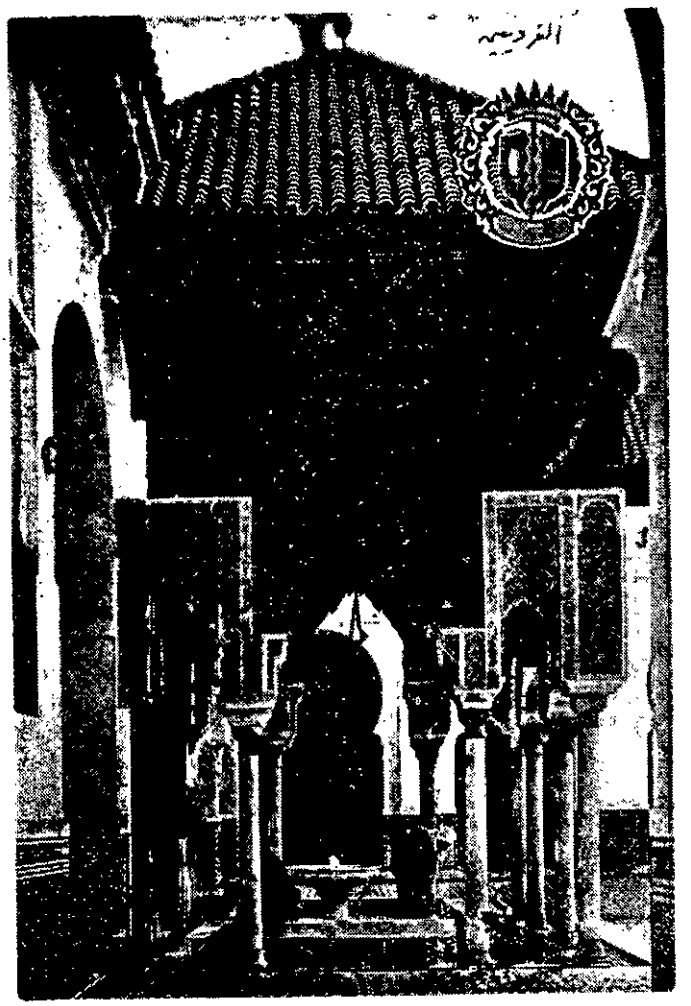

ميضاة جامع القرويين في فاس

جامع تقيمه سيّدة مسلمة في العالم الاسلامي كلّه ؛ وكُلُّ الدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ ذلك الحين كانت تتبارى في دعم القرويين ، وإغداق المال عليه ، وإجراء التوسُّعات التي يتطلّبها ، وتوفير العلماء له ، (والمدارس) العديدة لايواء طلاّبه وتدريسهم .

أمّـا اثر الاندلس في القرويين فنُطالعُه في كـلّ مكان من هذا الجامع العريق : ففـي المحراب نرى الطرازَ الاندلسـيّ يُزخرِفُه زَخرفَةً بديعة ؛ وفي صحن الجامـع تُدهشُنا قِطَع الزلّيج ــ او الخـزف الصغير الملـوَّن ــ البديعة الألوان تُغطي الأرضيَّة كلَّهـا ، وتزخرف المِيضَأة الجميلة ، والجُدران جميعُهـا . ومِن فوق زلّيج الجدران والأرضيّـة تتدلّى المَقْرَبصات والنقـوش الجبصيَّة والخشبيَّـة المدهشة ، تَفنَّنَت فيها ايدي الصُنّاع الفاسيّين الذيـن اخذوها في الأصل عـن الاندلسيين ، ومضت تبدع فيهـا ما شاء لها الابداع . وعلـى طرَفَي الصحن تقوم ظُلَّتان ــ سقيفتان ــ جميلتان ، تُزيّنُهمـا السقوف الخشبية البديعة في نصفهما الأعلى ، والأعمِـدَةُ الرفيعة الدقيقة مـن اسفلهما ، والزلّيج الأخضر البهيج في سطوحهمـا . وعلى الجدران قِطَـعٌ صغيرة من الفسيفساء الزلّيجية البهيّـة الألوان .

وعلى مقربة من الجامع عِـدَّةُ مدارس قديمة ، اندلسيـةِ الطراز ، نَذكر منها : البوعنانية ، ومدرسـة النجّارين ، والعطّارين ، والصَفّارين ؛ وهـذه كلُّها من العهد المَرينـيّ في القرنين الثالث عشر والرابـع عشر . وهنالك ايضا مدرسـة الشَرّاطين ، وهـي من عهد الأُسرة العَلَوية . وكلُّ هذه المـدارس وسواها من المدارس القديمـة في مختلف مـدن المغرب هي من طراز المدارس التـي نشأت في الأندلس من قبل ، والتي جَعَلَت مـن الأندلس منارةَ علـمٍ وحضارةٍ قَبْلَ ان تقوم النهضة الحديثة في اوروبـا .

وتَتَجلَّى الصناعةُ الأندلسيـة في كل مكان من مدينة فـاس : في المساجد ، والزوايا ، وفـي المدارس ، والأضرحة . ومن أهـمِّ الزوايا في فاس زاويةُ مـولاي إدريس ، مؤسس المدينـة ؛ ويتبدّى جمالها في زلّيج سطوحها وأفاريزهـا ، وزخارف جدرانها وارضيّتهـا .

غير أن احدثَ الاعمـال الزخرفية الجميلة المتطـوِّرَة يَبْهَرُ الزائر في (فندق قصر الجامعـي) ، وهو فندقٌ كبير حديـث ، نِصفُه كان قصرًا قديما من القرن التاسـع عشر لأحد كبار اغنياء المغـرب يُدعى (الجامعي)

ـ وله قصور اخرى في مكناس وبعض المدن المغربيّة الاخرى ـ تم اضيفت اليه اجنحةٌ حديثة ، واستُغلّت حدائقه الفسيحة ، وَزُيِّنَ بالنقوش والزخارف الاندلسية المُحْدَثَة ، فجاء قطعةً مدهشة من جَنَّة

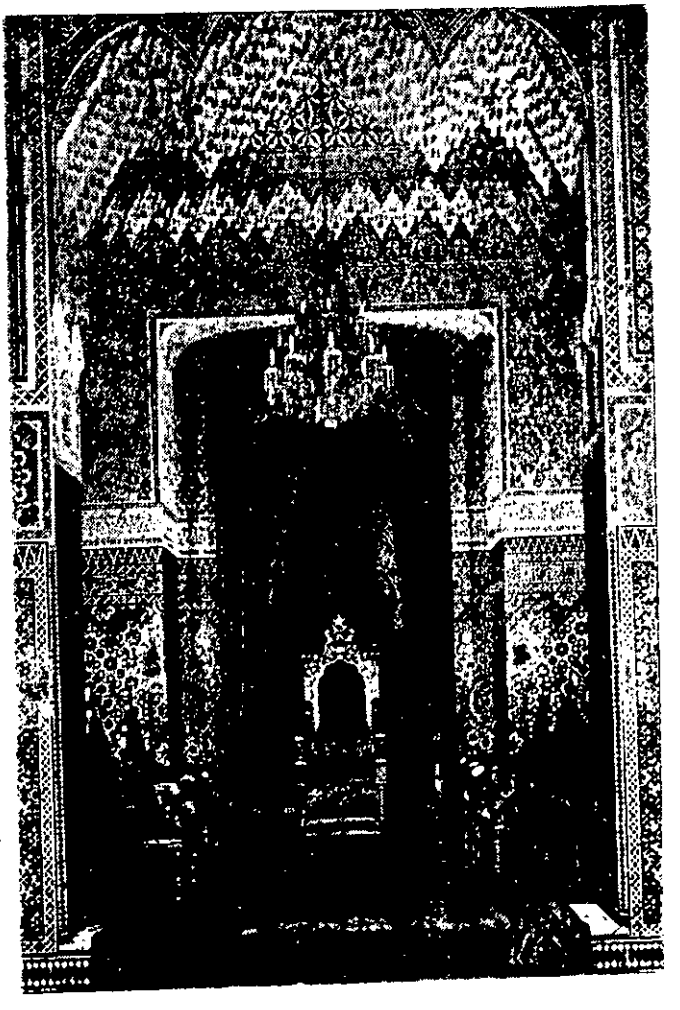

قاعة العرش في القصر الملكي في تطوان

الأندلس ، يُعِزُّ مثيلها في قصور غرناطة وإشبيلية ؛ وفي فسحاته الواسعة ، حَوْلَ بِرْكة الماء الكبيرة في حدائقه ، تُقام حفلات الغناء والرقص والموسيقى الأندلسية ، فيعيش الساهرون في جوٍّ اندلسيّ خالص ، وفي مُتعةٍ للعين والنفس لذيذةٍ حالمة .

لقد امتزج تاريخُ فاس بتاريخ الأندلس في اشياء كثيرة : امتزج بالأُسَر الأندلسيّة العديدة التي نَزحت الى المدينة منذ انشائها ؛ وامتزج بفنون الهندسة العمرانية والنقش والزخرفة ؛ وامتزج في رحاب جامع القرويين ، اساتذةً وطُلاّبًا وزُوّارًا ؛ وامتزج في قصور الملوك والحُكّام بمن وفد عليهم من أعلام الأدب والشعر والفِقْه والعلم من الأندلسيين ، ولا سيما في عهد المَرينيّين وسُلطانهم الأشهر أبي عنان . وقد ذَكَرنا في ما تَقدَّم اسماءَ بعض هؤلاء الأعلام .

وهناك مظاهر اخرى كثيرة من امتزاج الأندلس بمدينة فاس ، نَجِدُ بعضها في الطُرُقات الضيّقة التي تسير في وسط المتاجر المصطفّة على الجانبين، لتُبْرِزَ اعمال النَسّاجين والصاغة والصُنّاع الفاسيين البارعةَ الجميلة . ونَجِدُ بعضها كذلك في طراز الأسوار ذات النُتوءات المُدَبَّبَة .

والواقع ان مدينة فاس من اكثر المدن المغربية تأثُّرًا بالأندلس وبفنون الأندلس ، ومن اكثرها احتضانا لفنون النقش والزخرفة والبناء الأندلسية .

— ٥ —

تَطْوان

تقوم مدينة تطوان — او المدينة البيضاء ، كما تُدْعَى ايضا — على سفح تل (دَرْسَة) الى الجنوب من سَبْتَة . ومن حَوْلها يَسقي وادي الحلو — ويُدعى ايضا وادي مَرْتَل — بساتينها الجميلة المحيطة بها . وقد بَنَى هذه المدينةَ المهاجرون الذين جاؤا من غرناطة في ايامها الاخيرة ، وعلى راسهم ابو الحسن المنظري . ثم لَحِقَ بهم غيرُهم ممن اضطُرّوا الى النزوح عن الأندلس . وقد حافَظَت هذه الأُسَر النازحة على أُسلوب حياتها الأندلسية ، بحيث يُخَيَّل اليك ، وانت تدخل الى تطوان ، انك تَدخُل الى مدينة اندلسية . والواقع انني هناك رَجَعَ بي الخيال الى مدينة (رُنْدَة) في الجنوب الأندلسي ، بشكل خاصّ ، وشَعَرْتُ بأنني قد عُدتُ اليها من جديد — وكان عهدي بزيارة رُنْدَة قريبا — .

وتُطوان هي العاصمة العلميَّـة في الشمال المغربي ، واللغـةُ الاجنبية التي يتكلم بهـا التطوانيون هي الاسبانيـة ، وبيوتُها تُعكِس جمال الطراز العمرانـيّ والهندسيّ الأندلسـيّ .

حوشـة موسيقى اندلسية في قصر البريشـة في تطوان

وقبل أن امضي في الحديـث على المدينة وطابَعِهـا الاندلسي ، أوَدُّ أن أذكر انني حرصتُ هناك على زيارة مـؤرخ تطوان وشيخ علمائها ، الاستاذ الحاج محمـد داود ، صاحب (تاريـخ تطوان) ، الذي يقع في اربعةَ عشر مجلّدًا ضخمـا ، سِتَّةَ منها مطبوعة ، والثمانيـة الأخرى

تنتظر الطبع ، يُضاف اليها اربعةُ مجلدات ضخمة اخرى بعنوان (عائلات تطوان) ، ممّا يصل بتاريخ تُطوان الى ثمانية عشر مجلّداً ، اطلعني عليها الأستاذ محمد داود في تلك الزيارة .

ان روح الاندلس ما تزال تعيش مع الحاج محمد داود ، مُتَحَدِّرَةً اليه مِنْ اجداده الذين نَزحوا عن غرناطة . ومَنزلُه قطعةٌ فَنّيّة من الأندلس : بتنظيمه الهندسي ، وبنقوشه وزخارفه ، وَفُرُشه واثاثه ، وجدرانه وسقوفه ؛ ولأوّل مرة ، وفي منزل الحاج محمد داود ، رأيت طراز المخادع الاندلسية : بالسرير العالي ، والستائر المصنوعة من الدِمَقْس الأصليّ الجميل ، ورأيتُ كيف يكون (البيت الأندلسي) بفراشه على سَطيحةٍ مرتفعة عن الأرض ، وبمَسانِدِه المستديرة الطويلة المغطّاة بقماش حريريّ زاهي الالوان . كلُّ ما في منزل الحاج محمد داود يَنقُلُك الى الأندلس ، فتعيش مع التاريخ الزاهي العزيز الذي مضى .

ومثل منزل الحاج محمد داود كذلك منازل عديدة اخرى . أَهلُها كُلّهم من ابناء المهاجرين الأندلسيين ، ولم يستطيعوا التخلّي عن أسلوب الحياة الاندلسيّة . وقد زرتُ من هذه المنازل منزل عبد السلام الصَفّار ، مدير مدرسة الفضيلة للبنات ، كما زرتُ مدرسَتَه ايضا ، فرأيتُ في كليهما ما يُبهج النفس والنظر من روعة الطراز الأندلسيّ في كلّ شيء .

حتى الساحاتُ والحدائقُ العامة في وسط المدينة ، مِن مِثْل ساحة الحسن الثاني ، وحديقة (روضة العُشّاق)، هي ايضا قِطَعٌ من جِنان الأندلس وساحاته العربيّة القديمة . وحين تَدْخُل الى حديقة (روضة العُشّاق) تجد في وسطها ظُلّةً ــ سقيفة ــ جميلة لجلوس المتنزّهين ، سَطحُها من الزِلّيج الجميل المألوف جدًّا في الأندلس والمغرب . وعلى مقربة منها بِرْكة صغيرة مستطيلة ، على جانبيها نوافيرُ رفيعة تنفث أقواسا من الماء الى وسط البركة ، فيعود بك الخيال الى (بِركة الساقية) في قصر جَنّة العريف ، في غرناطة .

وساحة الحسن الثاني في وسط المدينة ، تتوسّطها ظُلّةٌ انيقة كذلك ، تقوم على اعمدة دقيقة ، تُذكّر الزائر بدِقّتها ، ولطفها ، وجمال هندستها ، وزليجها ، وزخارف ارضيتها ، بكثيرٍ ممّا يُعْرف في الأندلس . الأعمِدَة الرهيفة الجميلة بشكلٍ خاص ، تُذكّرني بأعمدةِ جامع قرطبة ، وقصر الزهراء ، وقصر الحمراء في غرناطة .

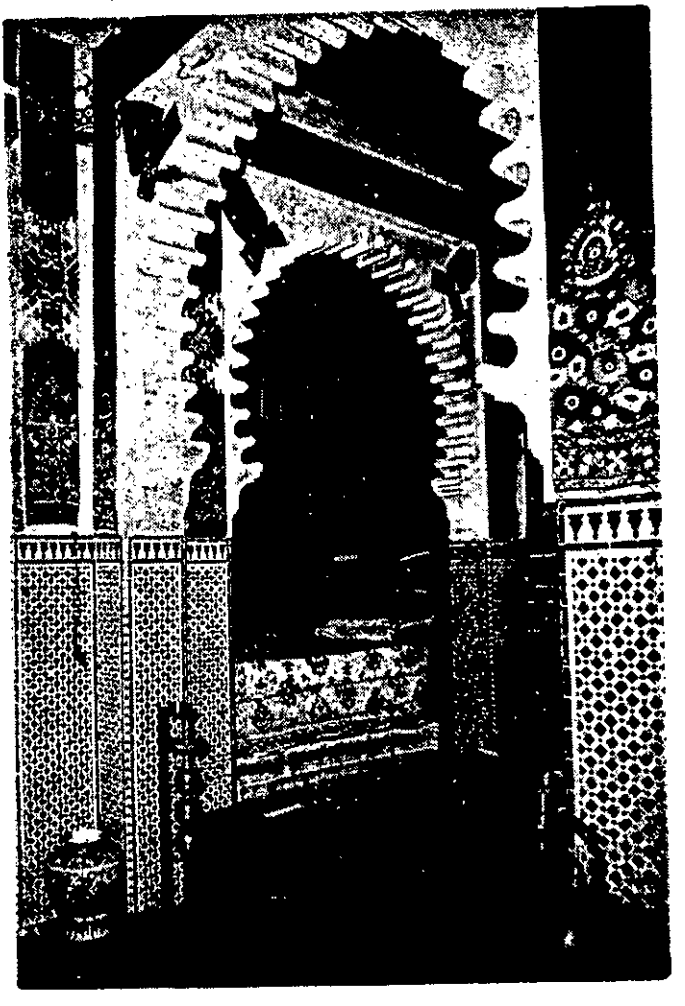

مَخْدَع أندلسيّ في المغرب

ثم تنتقل من الساحة الى القصر الملكي المجاور لها ، وهناك يتجلى الفنّ المعماريّ المنقول عن الأندلس ، والزخارف والنقوش

والمقربصات الأندلسية : باشكال لا تَشْبَع العينُ من تأملها ، ولا النفس من الاستمتاع بسحرها الدائم . وهذا الجمال هو بعضُ التفنّن البارع المدهش الذي يَتنافس فيه الصُنّاع التطوانيون والصُنّاع الفاسيّون بشكل خاص ، ويحاول كلٌّ منهم ان يَتفوّق فيه على زميله .

هذا القصر الملكي بُني سنة ١٦٠٠ م. ، القرن العاشر الهجري ؛ بناه القائد أحمد الريفي ، خليفة الملك سليمان العَلَويّ في الشمال المغربي ، ثم أُدخِلَت عليه مع تعاقُب الأجيال ترميماتٌ واصلاحات عديدة ، نَجِدُ تواريخها مُدَوَّنة على جانب باب القاعة الكبرى ، في الطابق العُلْويّ ، وأما الهندسة الأصليّة فلم يطرأ عليها اي تغيير . وقد عَلِمْتُ من وكيل القصر، الذي رافقني في جولتي هناك،ان الصناعة الجِبْصيّة في القصْر ، بِنقوشها المُقَرْبَصة الجميلة الأنيقة ، هي صناعةٌ فاسيَّة ، وأما الزِلّيج الصغير البديع الالوان فمزيجٌ من صناعة تَطوان وصناعة فاس ، وأما المقربصات الخشبيَّة وكلُّ النقوش الخشبيّة فصناعةٌ تطوانية . والفرقُ بين صناعة تُطوان وصناعة فاس في اعمال الزلّيج الصغيرة ــ كما قال لي وكيل القصر ــ هو انَّ الصُنّاع الفاسيّين يُصنعون الشكلَ الكامل قِطعَةً واحدة ويشوونه في النار ، وأما التطوانيون فيُقَطِّعونه قِطَعاً صغيرة ثم يَشوونها ، وبعد ذلك يُلصِقونها على الجدار قطعة قطعة . وكان الصانع التطواني الأول الذي صَنَع نقوش القصر يدعى (المعلم أحمد البوري) .

وَتَنْتَقل من القصر الملكيّ في طريق ضَيِّقة نازلة مُتعرِّجة ــ هي طريقٌ اندلسيّة صِرْف ــ لِتَصِل الى قصرٍ آخر عظيم الفخامة في طرازه الأندلسيّ . ذلك هو (قصر البريشة) ؛ وهو جناحان كبيران ، عاليا السقوف ، أحَدُهما مخصَّص لِبَيع المصنوعات الجلديّة والمنسوجات المغربيّة المشهورة في جمالها ، والثاني سياحي : تَدْخُل من الباب فُتفاجَأ بمنظرٍ قد لا تَقَع عليه العينُ في ايّ مكان آخر : بَهْوٌ عريض فسيح الجوانب ، وفي وسطه بِرْكة ماء صغيرة جميلة ، يُنفِرُ الماء من نافورة فيها ؛ وَمِن حول البركة جوقةُ رجال ونساء بملابسُ اندلسيّة

مزركشة ، وفي أيديهم آلاتُ طرب اندلسية . وما إن يُحِسّوا بِوَقْع خُطاك عند الباب حتى يأخذوا في العزف والغناء ، وتَرقُص في وسطهم الراقصات الجميلات ، وكلّ ذلك بفن اندلسي جميل أخّاذ . وعلى جوانب البَهْو العريض مقاعدُ منخفضةٌ لجلوس الزوّار والسُيّاح للأستمتاع بالرقص والغناء وبالموسيقى الأندلسية .

هذا القصرُ أقامَهُ سنةَ ١٨٩٧ الحاج عبد الكريم البريشة ، وكان سفيرًا ووزيرا وثريًّا كبيرا ، تَولّى مناصبَ رفيعةً في تطوان وفاس والبيضاء في عهد الملك الحسن الأول والملك عبد العزيز ؛ ويُقال إنه بنى قصرًا آخر مِثْله كذلك ، وجَعَل القصرين لِبِنْتَيه . وهذا القصر مُتعةٌ للعين والنفس ، بما فيه من جمال النقوش والزخارف الأندلسية .

والجديرُ بالذكر انّ في تطوان وغيرها من مدن المغرب مدارس خاصة ، يدعونها (دُور الصناعة) تُدَرَّسُ فيها فنون النقش والمقربصات والترصيع الأندلسية ، لتَظَلَّ حيَّةً متطوِّرة باستمرار . وقد دَخَلْتُ دار الصناعة في تطوان ، وتجوَّلتُ في ارجائها ، فأدهشتني الصناعات الأندلسية الجميلة التي يصنعها المتدرِّبون هناك ، حتى اذا ما وَصلتُ الى القاعة الأندلسيّة في الطابق العُلْوي ، وَقَفْتُ ذاهلا امام الجمال الباهر المتجلّي في الجدران والسقف ، وفي قِطَع الأثاث الخشبية البديعة الصنع .

إنَّ كلّ شيء في تطوان ، حتى مداخل البيوت ، يوحي اليك بانك في قِطعَةٍ من الأندلس العربيّة في ازهى عصورها .

* * *

وآتي الآن الى الختام من هذه الجولة السريعة ، لأقول إنَّ ما قَدَّمْتُه في هذه الدراسة الموجَزَة ليس سوى خُلاصةٍ للانطباعات التي عُدْتُ بها من جَوْلتي في مُدن المغرب . ولكنَّ الواقع الذي شاهدتُه ، وعِشْتُه ثلاثة اسابيع هناك ، يَظَلُّ اكبر من الكلمات ، وهو جديرٌ بمزيد من التفاصيل ، وجديرٌ كذلك بمزيد من الصُوَر ، لِتُقَرِّبَ الوصف من الحقيقة .

لقد زُرْتُ الأندلس مرّتين قبلَ زيارة المغرب : كانت الأولى سنة ١٩٦٧ ، والثانية سنة ١٩٧٤ . وكانت الزيارتان للدراسة الفاحصة المتأنّية ، لا لمجَرَّد السياحة والنزهة . وقد امتلأتْ نفسي بما شاهدتُ هناك من روائع آثار الحضارة العربية الاسلامية الباقية الى اليوم .

وحين زُرتُ المغرب عام ١٩٧٤ ــ بعد زيارتي الثانية للأندلس مباشرة ــ احسستُ بأن هذه الزيارة كانت ضروريّةً لكي تُكْمِل بها دراستي للأندلس : ذلك لأنَّ بين البلدين ، الى جانب التاريخ الطويل المشترك ، حضارةً مشتركة باقية ، ولأنَّ المغرب اليوم امتدادٌ رائع للأندلس ، وتاريخِهِ ، وحضارتِهِ ، وفنونِهِ .